لماذا نخطئ في فهم تجسُّد ابن اللّه الكلمة؟

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٥

www.coptology.org

على مدى أربعين عاماً، بل أكثر، قبل أن يولد موقع الدراسات القبطية، بل منذ أن فُتح كتاب تجسد الكلمة للقديس اثناسيوس. وكان الكتاب ممنوعاً في الكلية الإكليريكية، ومع إصراري على تدريس الكتاب، واجهت حرباً من أسقف التعليم، ومن البعض الذين لا أريد أن أذكر أسماءهم، لا سيما الذين رحلوا إلى عالم الخلود.

كانت الدهشة هي أول رد فعل، ولكن مع استمرار الهجوم على الكتاب وعلى المؤلف نفسه أثناسيوس العظيم، رغم أن أستاذنا د. وهيب عطا الله لم يساوره الشك في أصالة مؤلفات اثناسيوس، إلَّا أن أسقف التعليم كان له رأيٌ آخر، وهو في عبارة واحدة، إن الذين نشروا هذه المؤلفات هم الكاثوليك والبروتستانت لدعم التعليم بالطبيعتين رغم أن اثناسيوس لم يكن له دور أساسي في الصراع حول تلك المسألة، ولم يستخدم كلمة طبيعة وطبيعتين في تجسد الكلمة بالذات.

تُرى ما هي الأسباب الخفية غير المعلنة التي بسببها يحارب البعض تجسد الابن سواء أكان ذلك عن جهل أو عدم معرفة؟ ليس هو موضوع هذا البحث، ولكن البحث هو عن الأسباب الحقيقية لرفض التجسد.

أولاً: دونية الجسد الإنساني. فهو حقير وتراب ونجس وشرير. وقع في هذا الفخ العديد من رجال أشداء أذكياء مثل أبوليناريوس، أكثر من درس علوم الفلاسفة القدماء. بل الناسك أوطاخي، وعند بعض النساك، يبدأ النسك بكراهية الجسد. لم يحتمل ابوليناريوس أن يكون للرب المتجسد عقلاً ونفساً إنسانيةً؛ لأن هذا يعرِّض الرب للخطية. وكراهية أوطاخي للجسد جعلته يتخيل أنه (أي الجسد) ذاب في اللاهوت مثل قطرة عسل في بحر من الماء.

ثانياً: ومع دونية الجسد، لكل إنسان مهما كان تاريخ شخصي كُتِبَ في داخل قلبه، يجعله تحت وطأة الشعور بالذنب، يرى في ضعف الجسد أن الرب يسوع أخذ جسداً لا يمت للإنسانية بصلة، فهو لا يأكل ولا ينام ولا يستحم .. الخ. هذه كلها أمور نراها محاطة بالمفاهيم الاجتماعية السائدة في كل مجتمع، والتي ترى أن الأكل والملابس

والنوم ..إلخ كلها حقارة ودونية؛ لأن كل من يعتقد بالدونية له تاريخ جسدي خاص به جعله يلصق الحقارة والذنب والشر بأعضاء الجسد. ذكرتُ مرةً في إحدى كنائس القاهرة إن إفرازات الجسد كلها موجودة في داخل الجسم، وانها فينا مهما اغتسلنا، هي في البطن والكلى، وأنها ليست نجاسة؛ لأنها من ضرورات الطبيعة الإنسانية التي خلقها الله الصالح، وأن خروج هذه الإفرازات هو عمل أعضاء الجسد الطبيعي. واعترض بعض الأخوة الذين يعيشون حسب شريعة موسى. وقلت إن ما يذكره العهد القديم هو محاولة "فرز" شعب عن باقي الشعوب، وإن المزامير التي تؤكد صلاح الله ورحمته في خلق وخدمة الخليقة مثل مزمور ١٤٧ يجب أن تجعلنا نقرأ شريعة موسى بشكلٍ آخر مختلف؛ لأن المزامير أعادت الإنسانية إلى التجديد وإلى العهد الجديد الذي يفوق العهد القديم (عب ١٠: ١-١٠).

ثالثاً: والسبب الأخطر هو الفصل التام للرب المتجسد عن حياتنا الإنسانية؛ عندما لا نفهم أن ما حدث في حياة يسوع هو "لأجلنا نحن البشر". وقد جرى إبعاد الرب عن حياتنا بأكثر من وسيلة، لعل أهمها هو الخلاص بالأعمال، وهو تعليمٌ يُقال دون تحديد بالمرة، وإنما له الوجه الكنسي الذي يظهر في التعسف في الاستعدادات الجسدانية قبل التناول، واعتبارها مؤهلات للتناول، وهي صورة طقسية للخلاص بالأعمال. وهناك صورة أخرى لإبعاد الرب المتجسد عن حياتنا الإنسانية، مؤداها وضع إطار لاهوتي خاص بالمسيح وحده، فهو فديةٌ دُفِعَت للآب، وبالتالي لا شركة لنا في الصلب والقيامة، نحن فقط متفرجين على ما يحدث بين الآب والابن، ونسمِّي هذا إيماناً، بينما الإيمان هو شركة حقيقية فيما نؤمن به، وليس مجرد "فُرجة" أو جمع أفكار عقلية عن الرب.

رابعاً: ولدى الكثيرين هاجس اوطاخي يجعلهم يظنون أن المسيح الرب أخذ طبيعة آدم قبل السقوط. واعتبروا هذا تعليماً أرثوذكسياً، في حين أنه تعليمٌ وافدٌ من الغرب، تعتقد به الشيع الإنجيلية التي ترى أن الرب تجسَّد لكي يُقدَّم ذبيحة فقط، ولذلك هو يولد بلا خطية، وهو ليس من نفس اللحم والدم (عب ٢: ١١)، وهذا إنكارٌ صريحٌ لتجسد الرب؛ لأنه -بذلك- يكون قد وُلِدَ وعاشَ وماتَ خارج الانسانية الجريحة

الساقطة الخاطئة.

خامساً: وخلف الفكرة تكمن ألفاظٌ برَّاقةٌ لامعةٌ، ولكنها بلا أساس مثل ما يردده البعض: "عتيق يسوع"، و"جديد يسوع" ولكن "ابن الانسان" هو الاسم الذي أعطاه الرب نفسه لذاته. هو آدم الأخير أو الثاني الذي لم يحدث فيه تحوُّلٌ من عتيق إلى جديد بمجرد الاتحاد الأقنومي؛ لأن هذا يلغي التعليم الرسولي برمته.

فهو **أولاً**: أخذ صورة العبد بعد أن أخلى ذاته من صورة الله (فيلبي ٢: ٦).

وثانياً: وُجِدَ كإنسان في هيئة أو شكل كل إنسان، وهذا يعني أن الحبل والولادة والجوع والعطش والموت والدفن هي أحداثٌ حقيقيةٌ، ولم تكن مجرد تمثيلية يظهر فيها يسوع كأنه إنسان وهو ليس كذلك، وأن القديم الذي فيه هو مجرد شكل لا أساس له في واقع تجسده. هذه كارثة؛ لأن قبول الابن بالاتحاد بما فينا من ضعفات جسدانية، بل وروحية مثل الخوف، هو الذي يجعله يتَّحد بنا، ولأنه أباد هذه الضعفات الجسدانية والنفسانية، يستطيع كما يقول رسول الرب "يقدر أن يعين المجرَّبين" (عب ٢: ١٨).

فالتحول الذي حدث في الناسوت، أي إنسانية الرب يسوع، هو تحولٌ حقيقيٌّ يتم في داخل الرب؛ لأن الاتحاد لم يمنع عن الجسد:

- الألم
- الموت
- الضعف

وهذا لا يحتاج إلى اقتباسات من الأناجيل الأربعة؛ لأن الرب يسوع عرف ضعفات الإنسان ليس كفكرة، بل كواقع عاشه – مجرَّبٌ "مثلنا في كل شيء" (عب ٤: ١٥). وتجربة الرب لكي يكون مثل إخوته هي انتصارات تُضاف للإنسانية – لم يكن

الرب محتاجاً لها- بل كان يحول إنسانيتنا نحن فيه.

الاتحاد لم يمنع الألم ولا الموت ولا الجوع ولا الحزن: "نفسي حزينة جداً حتى الموت" (متى ٢٦: ٣٨)، بل والبكاء (لوقا ١٩: ٤١). لا نمو في الاتحاد، ولكن هناك نمو للإنسانية في المعرفة. كان فعلاً يجهل اليوم والساعة؛ لأنه "ابن الانسان"؛ ولكن إدراكه ينمو رغم الاتحاد؛ لأنه جاء لكي يبيد جهل الإنسان بالمستقبل. وعلى أساس إبادة جهل الإنسان فيه هو، أي في إنسانيته، جاء روح يسوع باستعلانات المستقبل، وبسبب ما حدث للناسوت من تقدُّم قال الرب عن الروح: "يخبركم بأمورٍ آتية" (يوحنا ١٦: ١٣).

أكتبُ محذِّراً الأخوة من أي محاولة لإنكار جهل الرب وهو في الجسد. هذه المحاولة لها ردٌّ قصير للرسولي: "لم يكن يعرف اليوم ولا الساعة حسب الجسد" (ضد الأريوسيين ٣: ٤٨). وهكذا -في ضوء ذلك- يجب أن نفهم ما قيل قبل القيامة والصعود من بكاء وخوف.

وفي فقرة جديرة بالاعتبار يقول الرسولي:

> **"حينما يُقال عنه إنه يجوع، وإنه يعطش، وإنه يتعب، وإنه لا يعرف، وإنه ينام، وإنه يبكي، وإنه يسأل، وإنه يهرب، وإنه يولد، وإنه يتجنب الكأس، وعموماً أن يحتمل كل ما يخص الجسد، فينبغي أن يُقال إنه في كل هذه الأمور إنه عندما يجوع ويعطش، فإنه يفعل هذا بالجسد لأجلنا. وبينما هو نفسه غير قابل للتألم بالطبيعة، ويظل كما هو دون أن تؤذيه هذه الآلام، بل بالحري هو يوقفها ويلاشيها، فإن آلام البشر تتغير وتتلاشى في ذلك الذي هو غير متألم لكي يصير البشر فيما بعد هم أيضاً غير متألمين وأحراراً من هذه الأوجاع إلى الأبد (ضد الأريوسيين ٣: ٣٤).**

ويعيد تأكيد التعليم بصورة أبسط، وكأن ناسوت المسيح هو الذي يجيب على أسئلة الهراطقة:

– أنا من التراب وبحسب الطبيعة (الترابية) مائت.

– قد صرتُ جسدَ الكلمة.

– هو حمل أوجاعي مع أنه هو غير متألم.

– هكذا صرتُ أنا حراً من هذه الأوجاع، ولم أعد بعد مستعبَداً لها بسبب الرب الذي حررني منها.

– لأنك أن كنت تعترض على تحرري من ذلك الفساد الذي هو طبيعتي، انتبه لأنك بهذا تعترض على أن كلمة الله قد أخذ صورة العبد الخاصة بالجسد (المرجع السابق ٣: ٣٤).

ولكن علينا أن لا نفقد إنجازات التدبير؛ لأن تحرر الإنسانية هو ذات التحرر الذي يتم فينا نحن بسبب اتحادنا بالكلمة غالب الأوجاع كلها، ولذلك يؤكد الرسولي بعد الكلمات السابقة:

"كما أن الرب بلبسه الجسد قد صار إنساناً،

هكذا نحن البشر، فإننا نتأله بالكلمة باتحادنا به بواسطة جسده

ولهذا نحن نرث الحياة الأبدية" (المرجع السابق).

هكذا استطاع الكلمة بقبوله كل ضعفاتنا أن يحول هذه الضعفات. وهنا يقدم الرسولي آدم كمثال، فقد أخذ وفقد، ولكن جاء المتجسد لكي يعطي للنعمة الضمان ولكي:

"تبقى النعمة غير متغيرة وغير قابلة للضياع وتظل محفوظة للبشر ومضمونة لأنه يملك (الرب) هذه العطية لنفسه" (المرجع السابق:

٣٨).

قبوله هذه الضعفات لم يكن من أجل ذاته:

يقول الرسولي:

"لأنه لو كان الكلمة نفسه باعتباره الكلمة، قد أخذ وتمجد لأجل نفسه، لو كان هو بحسب لاهوته، هو ذاته الذي نال التقديس وأقيم ثانيةً، فأيُّ رجاءٍ يكون للبشر؟ لأنهم سيظلون، كما كانوا عرايا وتعساء ومائتين" (المرجع السابق: ٣٩).

قال أحد الأخوة الذي لم يدرس بعناية وفهم، إن عبارة "يُقال إنه"، هي من قبيل الوصف ليس إلَّا، وليس لها أي معنى حقيقي. وهذا ليس فقط خروجاً على ما جاء عند أثناسيوس وكيرلس الكبير الذي يقول:

"يُقال إنه وُلِدَ جسدياً .. فيقال إن الكلمة قد قَبِلَ الولادة الجسدية لكي ينسب إلى ذاته ولادة جسده الخاص" (ق. كيرلس الرسالة الثانية إلى نسطور فقرة ٤).

ثم:

"وهكذا نقول إنه أيضاً تألَّم وقبر وقام، ليس أن كلمة الله قد تألم في طبيعته الخاصة (اللاهوت) أو ضُرِبَ أو طُعِنَ أو قَبِلَ الجروح الأخرى لأنه الإلهي غير القابل للتألم حيث أنه غير مادي، لكن حيث أن جسده الخاص الذي وُلِدَ، عانى هذه الأمور، فإنه يقال إنه هو ذاته أيضاً قد عانى هذه الأمور لأجلنا ... كلمة الله حسب الطبيعة غير مائت، وغير فاسد؛ لأنه هو الحياة ومعطي الحياة، ولكن جسده الخاص ذاق بنعمة

الله الموت لأجل الجميع .. لذلك يقال إنه هو نفسه قد عانى الموت لأجلنا .. نحن نعترف بمسيحٍ واحدٍ وربٍّ واحدٍ" (المرجع السابق: ٥).

"داس الموت أولاً في جسده الخاص، فصار البكر من الأموات وباكورة الذين رقدوا، ولكي يعد الطريق إلى قيامة عدم الفساد أمام طبيعة الانسان .. سلطان الموت قد انحلَّ" (المرجع السابق: ١١).

"لقد وُلِدَ لكي يبارك بداية وجودنا نفسها" (المرجع السابق: ١٨).

"هو لم يعرف الموت، نزل إلى الموت بواسطة جسده الخاص، لكي نصعد نحن أيضاً معه إلى الحياة، لأنه عاد إلى الحياة ثانيةً سالباً الجحيم، ليس كإنسان منَّا، بل كالإله في الجسد .. وسحق الموت" (الرسالة الأولى فقرة ٣٨).

نمو الجسد ليس في الاتحاد، ولكن بالاتحاد ينمو لأجلنا:

كانت النسطورية ترفض الاتحاد وتستخدم كلمة "اتصال" و"مَعيَّة" (الرسالة ١١ من رسائل القديس كيرلس). وكانت كلمة اتصال συναφεία تنكر الاتحاد الحقيقي. لكن الرب ذاق الموت بالجسد وتألم بالجسد، رغم أنه بالطبيعة غير متألم. مشكلة النسطورية هي ذات مشكلة كل مَن يريد إبعاد الابن عن الاتحاد بالإنسانية، والذي يعني بقاء هذا الاتحاد الأبدي.

مشكلة النسطورية هي ذات مشكلة كل مَن يحاول إبعاد الرب عن:

+ بقاء الرب متحداً بجسد قابل للموت ومات فعلاً.

+ قبول الطبيعة الإنسانية بكل ما فيها من ضعفات.

ما حدث للربِّ، هو ما يحدث لكل مؤمن اتحد بالرب نفسه من خوف وجزع وموت وسائر الضعفات الأخرى، رغم اتحاده بالرب. فقد ترك لنا الربُّ مثالاً لهذا الاتحاد: فقد قَبِلَ ما لنا كله، وحوَّله وأعطى لنا ثمار التحول لكي نتحول نحن فيه.

من الصعب علينا أن نتصور أن مَن هو الحياة وواهب الوجود والبقاء، يقبل موت الإنسان في جسده الخاص.

إن سِرَّ تجسد الرب هو في إخلاء ذاته، وإخلاء الذات هذا نستطيع أن نقترب منه على قدر ما يمكن لنا أن نستوعبه من الخبرة المسلَّمة لنا من آباء الكنيسة، ولكن تبقى معرفة المسيح الشخصية بحياته، وفهمه، واستعلانات الآب فيه، واستعلان ذاته، خاصةٌ به، هي "قُدس أقداس يسوع"، ونحن وقوفٌ، البعضُ منّا في "القُدسِ"، والبعضُ الآخر في "الدار الخارجية".

كيف سكن وحلَّ ملءُ اللاهوت في جسدٍ قابلٍ للموت؟ أو حسب تعبير الشهيد أغناطيوس الأنطاكي "حياةٌ في موت".

كيف يمتلك خالق الكون المعرفة، ثم يدخل في قلب الحياة الإنسانية التي لا تعرف اليوم ولا الساعة (مرقس ١٣: ٣٢)؟

إن ما كتب في شرح كلمات الرب هو جديرٌ بالدراسة، لكن يظل سرُّ المسيح مغلقاً على المسيح نفسه.

في إخلاء الذات ينكر الرب ذاته في ثلاثة أشياء:

أولاً: حرية استخدام سلطانه، فهو يقول لبطرس: "أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثنى عشر ألف جيشاً من الملائكة. فكيف يتم ما جاء في الكتب أنه يجب أن يكون هذا" (متى ٢٦: ٥٣-٥٤).

لقد جاءت مرحلة التدبير بالامتناع عن استخدام سلطانه. هو امتناعٌ حُرٌّ.

ثانياً: العمل والخدمة حسب المعرفة وحدها. فكم من مرةٍ عَرِفَ الربُّ أفكار الذين حوله. عرف خيانة يهوذا، ومع ذلك غسل قدميه، وأعطاه شركةً في العشاء في العلية[١]. المحبة تسبق المعرفة، ولذلك، الذين لم يكن لهم محبة، قال الرب عنهم: "اذهبوا عني لأني لا أعرفكم".

ثالثاً: إنكار الذات، وهو ممارسة إخلاء الذات؛ إذ سلَّمَ نفسه لليهود والرومان، ومن ثمَّ للموت. هذا ظاهرٌ لنا، أمَّا ما هو خفي، فهو المحبة الحُرة التي لا تعمل بواسطة المعرفة، بل تترك المعرفة جانباً؛ لأنها لا تريد أن ترى الشَّرَ الذي فينا، ولا تريد أن ترى أن شر قلب الإنسان يمنعها عن العطاء.

التجسد حقيقةٌ وليس فكرةً:

لعل أكبر ضربة وُجِّهَت إلى المسيحية في الغرب هو قيام حركة الإصلاح بوضع المعرفة المحددة في قوالب لفظية مثل "التبرير بالإيمان"، وغيرها. وقد طالتنا هذه العدوى فأصبح لدينا في كنيستنا أُم الشهداء الكثير من هذه القوالب اللفظية التي جعلت الإنسان خُلِقَ من أجل السبت، ولا داعي للاستطراد. على ما نؤكد عليه، وعلى أهميته هو:

١– التجسد هو حياة إنسانية حقيقية تنطوي على الألم والموت. فقد قَبِلَ الربُّ

---

(١) تناول يهوذا ثابتٌ عند ذهبي الفم، وغيره، وكانت عظة ذهبي الفم التي تقرأ في ترتيب أسبوع الآلام: "هذا هو يوم التقدم إلى المائدة الرهيبة. فلنتقدم كلنا إليها بطهارةٍ ولا يكن أحدنا شريراً مثل يهوذا لأنه مكتوبٌ لما تناول الخبز دخله الشيطان" (راجع العظة ٨١ على إنجيل متى ٢٦: ١٧ – ١٨. راجع أيضاً عظة ٥٠ على متى ١٤: ٢٣ – ٢٤ لذهبي الفم. وكيرلس الأورشليمي عظة ٢٣ في شرح قانون الإيمان فقرة ٦، وجيروم في الكتاب الثاني إلى Jovinianus فقرة ٢٥ وامبروسيوس الرسالة ٦٨ فقرة ٩٥ – اوغسطينوس المقالة ٦ على انجيل يوحنا الفصل الأول: ١٤)، والجدير بالذكر أن الدكتور مجدي وهبة (القس صموئيل) قد دفع ثمناً غالياً عندما ذكر تعليم ذهبي الفم، فقد مُنِع من التدريس في الإكليريكية، وقُطِعَ مرتبه، بل حُذِفَت عظة ذهبي الفم من بعض طبعات كتب ترتيب أسبوع الآلام.

كل ما في الإنسان لكي يحوِّله في كيانه، ولذلك من العبارات التي لم يتهم بها علماء الشريعة من الإكليروس، ما يذكره الرسولي بخصوص شرح (أفسس ٢: ١٤-١٥)، وهو عن خلق الانسان الجديد، يقول أثناسيوس:

> **"فإن كان قد أتى ليس لأجل ذاته، بل لأجلنا، فهو إذن لم يُخلَق لأجل نفسه، بل لأجلنا ... فإن جسده كان هو أول ما تم تخليصه وتحريره، إذ أن هذا الجسد هو جسد الكلمة نفسه". (الرد على الأريوسيين ٢: ٥٥، ٦١).**

ثم بعد ذلك يقول إن:

> **"كلمة الله المحب للبشر لَبِسَ الجسد المخلوق بإرادة الآب لكي يُحيي بدمِ نفسه هذا الجسد الذي أماته الإنسان الأول بسبب تعديه" (المرجع السابق ٦٥).**

فقد تمَّ فداء جسد المسيح نفسه من الموت بقبول الرب الموت، وهو ما يجعل الرسولي يقول في جرأةٍ سوف تُفزِعُ من لا محبة له:

> **"هكذا خُلِقَ المخلِّصُ بحسب الجسد، وصار أول الذين خُلِقوا من جديد" (المرجع السابق: ٦٦).**

٢- لا يوجد جديد وعتيق في يسوع، بل يسوع الواحد قاهر الموت والفساد الذي اجتاز الموت؛ لكي يخلِّص جسده من الموت، ودخل القبر؛ لكي يبيد الفساد، وقام من القبر؛ لكي يعطي الخلود والحياة الأبدية.

أخيراً:

هذه هي أعمال الرب في الجسد. وهي أعمال التدبير، فكلُّ عملٍ منها -بسبب

الاتحاد- ينقل الجسد والنفس إلى ما هو أعظم، ليس لأن الجسد يتحول بقدراته، ولا لأن النفس الانسانية قادرةٌ على أن تعرف أسرار الله، بل لأن الاتحاد وَهَبَ الجسد والنفس ذلك التحول الداخلي الذي يُوهَب لنا.

نحن نعطِّل هبات الله لنا في الابن، ولكن ليس الأمر كذلك في يسوع، بل تقدُّمُه المطَّرد لأجلنا، قوته هي الاتحاد الأقنومي، ونموه نحو معرفة وبذل المحب، هو حركة المحبة الإلهية المتأنِّسة التي حَفِظَت لنا كل هذا؛ لأن الرب يسوع هو ميراثنا.

يا يسوع،

لأجلِكَ قبلتُ العارَ

كما قبلتَه أنت

لكي يكون لي ذات المصير الذي أخذته لي بمحبتك

د. جورج حبيب بباوي

الأحد الأول بعد القيامة ٢٠١٥

ذكرى الأب يعقوب فرج خادم كنيسة الأنبا شنودة الذي خدم لي سر الميلاد الجديد في ذلك اليوم.